قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : التاريخ السياسي للأندلس

المحاضرة السابعة حول عصر المرابطين: التنظيم السياسي والأمني

أولاً: مقدمة المحاضرة (الإطار المفاهيمي والتأطير الإشكالي)

شكلت صرخة الاستغاثة التي أطلقها المعتمد بن عباد (ملك إشبيلية) وعبوره مضيق جبل طارق نحو مراكش، إيذاناً بنهاية حقبة وبداية حقبة جيوسياسية جديدة كلياً في تاريخ الغرب الإسلامي. لم يكن عبور جيش **"يوسف بن تاشفين "**إلى الأندلس عام 479هـ (1086م) وتحقيقه للانتصار المدوي في "الزلاقة" مجرد نجدة عسكرية مؤقتة، بل تحول –بفعل ضغط الواقع واستفحال خيانة ملوك الطوائف– إلى "ضم سياسي شامل" للأندلس إلى حاضرة مراكش.

بدخول الأندلس تحت المظلة المرابطية، انتهى "عصر اللادولة" (الطوائف)، ووُلدت **"الإمبراطورية المرابطية "**كأول كيان سياسي يوحد ضفتي مضيق جبل طارق (المغرب والأندلس) تحت سلطة مركزية واحدة. غير أن التحدي الأكبر الذي واجه المرابطين لم يكن "الفتح العسكري"، بل **"الإدارة السياسية والأمنية** ."كيف يمكن لقبائل "صنهاجة" الصحراوية، المتسمة بالبساطة والتقشف، أن تحكم مجتمعاً أندلسياً حضرياً بالغ التعقيد، ومتشبعاً بثقافة بلاطات الطوائف والأمويين؟

لقد تطلب هذا التحدي هندسة **"نظام سياسي وأمني هجين"**؛ يجمع بين العصبية القبلية اللمتونية في القيادة العسكرية، وبين الكفاءة الإدارية الأندلسية في تسيير الدواوين، تحت مظلة أيديولوجية صارمة يقودها "فقهاء المالكية"، وشرعية دستورية تُستمد من تبعية اسمية لـ "الخلافة العباسية" في بغداد.

الإشكالية المركزية للمحاضرة:

ما هي الأسس الأيديولوجية والدستورية التي استند إليها المرابطون لشرعنة حكمهم في الأندلس؟ وكيف هندس يوسف بن تاشفين وخلفاؤه (التنظيم السياسي والإداري) لربط "الولاية الأندلسية" بالمركز في "مراكش"؟ وما هي طبيعة (العقيدة العسكرية والتنظيم الأمني) التي مكنت هذه الدولة من كبح جماح الثورات الداخلية وردع الممالك المسيحية شمالاً قبل أن يصيبها الهرم والسقوط؟

المحور الأول: أسس الشرعية الدستورية والتنظيم الأيديولوجي (تحالف السلطة والفقهاء)

واجه يوسف بن تاشفين (مؤسس الإمبراطورية المرابطية) معضلة سياسية كبرى عند دخوله الأندلس: كيف يُبرر شرعاً وقانوناً عزل "ملوك الطوائف" (وهم حكام مسلمون) وضم أراضيهم إلى دولته؟ وكيف يحكم مجتمعاً أندلسياً يرى في نفسه تفوقاً حضارياً على قبائل صنهاجة الصحراوية؟ لحل هذه المعضلة، هندس المرابطون نظاماً أيديولوجياً ودستورياً ارتكز على دعامتين أساسيتين" :**التبعية الروحية للخلافة العباسية"**، و**"التحالف العضوي مع فقهاء المالكية.**"

.1التخريج الدستوري: (لقب "أمير المسلمين" والتبعية لبغداد)

على عكس الأمويين في الأندلس أو الفاطميين في إفريقية الذين أعلنوا الخلافة وتلقبوا بـ "أمير المؤمنين"، أبدى يوسف بن تاشفين ذكاءً سياسياً نادراً بتواضعه الدستوري. فقد أدرك أن ادعاء الخلافة دون الانتماء لـ "النسب القرشي" سيفتح عليه باب الطعن في شرعيته.

- **التبعية الاسمية لبغداد :**أرسل ابن تاشفين وفداً رسمياً إلى بغداد يحمل الهدايا والبيعة للخليفة العباسي "المستظهر بالله"، طالباً منه "التقليد(Investiture) "؛ أي التفويض الشرعي بحكم الغرب الإسلامي نيابة عنه.

- **لقب "أمير المسلمين :"**اكتفى يوسف بن تاشفين بلقب (أمير المسلمين وناصر الدين)، تاركاً لقب (أمير المؤمنين) للخليفة العباسي. وبتلك الخطوة، حوّل نفسه من "زعيم قبلي متغلب" إلى "ممثل شرعي وحيد" للخلافة في الغرب الإسلامي، مما جعل ملوك الطوائف مجرد متمردين على ممثل الخليفة.
- **النص المصدر :**يوثق المؤرخ **ابن أبي زرع الفاسي** هذه اللحظة الدستورية الفارقة وكيف تم إقرار اللقب وتوشيح ابن تاشفين بخلع الخليفة العباسي، قائلاً:

"ولما اتسع ملك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين... أشار عليه الأمراء والفقهاء أن يتسمى بأمير المؤمنين... فأبى من ذلك وقال: (حاشا لله أن أتسمى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة... وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم). فتسمى بأمير المسلمين... وبعث إليه الإمام المستظهر العباسي الخلع واللواء الفاخر، وعهد إليه بملك المغرب والأندلس" (1).

.2السلاح الأيديولوجي: (فتاوى عزل ملوك الطوائف)

لم يكن التقليد العباسي كافياً لإسكات النخب الأندلسية، فاحتاج المرابطون إلى "غطاء فقهي" داخلي يشرعن اجتثاث ملوك الطوائف. وهنا تجلى دور فقهاء المالكية.

- **تهمة الخيانة والمكوس :**استصدر يوسف بن تاشفين فتاوى من كبار فقهاء الأندلس، وكذلك من كبار علماء المشرق (وعلى رأسهم **أبو حامد الغزالي** و**أبو بكر الطرطوشي**(، تُكفر سياسياً ملوك الطوائف بناءً على تهمتين:

1. **الموالاة :**دفعهم الجزية (الپارياس) لألفونسو السادس والاستعانة به على إخوانهم.
2. **الظلم المالي :**فرضهم "المكوس" (الضرائب غير الشرعية) على العامة المنهكة.

- **النص المصدر (الوثيقة الدستورية للعزل :(**أورد **الونشريسي** في *المعيار* نص الفتوى القاطعة للإمام الغزالي والتي شكلت السند القانوني لاجتياح الأندلس، حيث يقول الغزالي:

"أما ملوك الطوائف، فمن أين لهم ولاية المسلمين وهم قد أسلموهم للكفار؟... فمن مالأ النصارى فهو كافر مثلهم. ويجب على أمير المسلمين [يوسف بن تاشفين] أن يقصدهم بالقتال... فإن أصروا على العناد، وجب خلعهُم، وضم بلادهم إلى مملكة أمير المسلمين العادلة" (2).

" .3سيمفونيا" السلطة والفقيه: (ديكتاتورية الشورى المالكية)

أسفر هذا التحالف عن تأسيس ما يُشبه "الجمهورية الفقهية" داخل الإمبراطورية العسكرية.

- **مؤسسة الشورى الفقهية :**لم يعد الفقيه مجرد قاضٍ أو مفتٍ، بل أصبح **"المستشار السياسي الأعلى** ."كان أمراء المرابطين (يوسف ثم ابنه علي) لا يبرمون أمراً، ولا يحركون جيشاً، ولا يعينون والياً إلا بمشورة كبار فقهاء المالكية وموافقتهم.
- **القطيعة مع الفلسفة والتصوف :**لضمان التماسك الأيديولوجي للدولة (Orthodoxy)، تبنى المرابطون "المالكية الفروعية" الصارمة، وقمعوا أي تيار فكري معارض (مثل إحراق كتب الغزالي لاحقاً في عهد علي بن يوسف بحجة احتوائها على تأويلات صوفية وعلم كلام لا يناسب عقيدة العوام).
- **التحليل الأكاديمي :**يُشخص المؤرخ **إبراهيم القادري بوتشيش** هذا الاندماج العضوي بين العسكر والفقهاء قائلاً:

"لقد أدرك المرابطون أن سيف صنهاجة لا يكتسب بريقه إلا بمداد الفقهاء. فتمت 'مأسسة' دور الفقيه الذي تحول إلى شريك فعلي في اتخاذ القرار السياسي، مما وفر

للدولة المرابطية في بداياتها مناعة أيديولوجية صلبة ضد أعدائها في الداخل والخارج" (3).

4.الخلاصة :

يُثبت التأسيس الدستوري للدولة المرابطية مستوى النضج السياسي الذي بلغته القيادة الصنهاجية. لقد أدركوا أن "القوة الخشنة" لا تبني دولاً مستقرة، فاستعاروا شرعية عالمية من (بغداد)، وشرعية محلية شعبية من (فتاوى المالكية)، فتشكل لديهم مزيج فريد: قوة عسكرية بدوية ضاربة، تقودها شرعية دينية مركزية. هذا التحالف كان سر صعودهم السريع، لكننا سنرى في المحور الأخير من المحاضرة كيف تحول هذا التدخل الفقهي المبالغ فيه إلى "جمود هيكلي" ساهم في سقوط دولتهم لاحقاً.

الهوامش :

(1)أبو الحسن علي بن أبي زرع الفاسي، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، راجعه عبد الوهاب بنمنصور (الرباط: المطبعة الملكية، 1972)، 145-146.

(2)أحمد بن يحيى الونشريسي، *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب*، إشراف محمد حجي، ج 2 (الرباط: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1981)، 122-124.

(3)إبراهيم القادري بوتشيش، *المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع، الاقتصاد، الذهنيات*)بيروت: دار الطليعة، 1993)، 85.

(4)أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ج 4 (بيروت: دار الثقافة، 1983)، 45-48.

المحور الثاني: الهيكلة السياسية والإدارية (جدلية المركز المغاربي والأطراف الأندلسية)

بعد القضاء على ملوك الطوائف وتوحيد الضفتين، واجه المرابطون تحدياً إدارياً غير مسبوق في تاريخ الغرب الإسلامي: كيف يمكن إدارة إمبراطورية شاسعة تمتد من نهر السنغال جنوباً إلى نهر الإيبرو شمالاً؟ وكيف يمكن لقبائل "صنهاجة" البدوية تسيير الحواضر الأندلسية المعقدة اقتصادياً واجتماعياً؟ لحسم هذا التحدي، تبنى المرابطون هيكلة سياسية براغماتية قامت على فصل "القيادة العسكرية" عن "الإدارة المدنية."

.1خفض الرتبة الجيوسياسية: (الأندلس من "مركز" إلى "ولاية")

لأول مرة منذ دخول عبد الرحمن الداخل (سنة 138هـ)، تفقد الأندلس صفتها كـ "دولة/مركز"، وتتحول إلى مجرد "ولاية (Province) "تابعة لعاصمة خارجية هي **"مراكش."**

- **نظام الولاة الصنهاجيين :**قسّم يوسف بن تاشفين الأندلس إلى أقاليم كبرى (قرطبة، إشبيلية، غرناطة، شرق الأندلس)، وعيّن على رأس كل إقليم والياً من كبار قادة "لمتونة" (القبيلة الحاكمة) أو من المقربين من الأسرة الحاكمة (مثل القائد سير بن أبي بكر، والأمير مزدلي بن تيلكان).
- **احتكار العنف الشرعي :**احتكر العنصر الصنهاجي المناصب العسكرية العليا وإدارة الحاميات (الحصون). ولم يُسمح للأندلسيين بتولي قيادة الجيوش الكبرى إلا في حالات نادرة، وذلك لضمان عدم تكرار تمردات عصر الطوائف.
- **النص المصدر :**يؤكد **ابن عذاري** في بيانه على سياسة "القبضة العسكرية الصنهاجية" التي أحكمت السيطرة على العواصم الأندلسية، قائلاً:

"ولما استقامت الأندلس لأمير المسلمين... رتب فيها القواد والولاة من كبار لمتونة، وجعل قرطبة دار إمارة الأندلس، وفيها يرابط كبار عسكره، وفرّق باقي الجند في الثغور لجهاد الروم" (1).

2.ثنائية السلطة: (السيف الصنهاجي والقلم الأندلسي)

أدرك المرابطون افتقارهم لـ "البيروقراطية" اللازمة لإدارة دولة متحضرة تمتلك نظاماً ضريبياً وقضائياً ودبلوماسياً معقداً. فكان الحل في الاستعانة بـ "النخب الأندلسية."

- **الأندلسيون في دواوين مراكش :**استقطب يوسف وابنه علي كبار الكُتّاب والوزراء الأندلسيين (الذين كانوا يعملون سابقاً في بلاطات الطوائف) لإدارة دواوين مراكش. فبرزت أسماء لامعة مثل الكاتب **ابن أبي الخصال،** والوزير **أبو بكر بن الجد،** والأديب **ابن عبدون.**
- **الاحتلال الثقافي الناعم :**هذه الثنائية (أمير لمتوني ووزير أندلسي) جعلت القرار العسكري بيد المغاربة، بينما القرار الإداري والسياسي والدبلوماسي بيد الأندلسيين. وقد أدى هذا إلى ما يُشبه "أندلسة" الإدارة المرابطية.
- **النص المصدر :**يصف المؤرخ **المقري التلمساني** هذا الاعتماد الكلي على العقل الإداري الأندلسي، قائلاً:

"وكان أمراء لمتونة، لقصورهم في باب البلاغة والكتابة، لا يستكتبون إلا أعيان الأندلس... فكانت رسائلهم ومخاطباتهم تخرج على أبدع ما يكون من النظم والنثر، وبهم [أي بكتاب الأندلس] انتظمت دواوينهم" (2).

3.التأثير السوسيولوجي العكسي: (ظاهرة "أندلسة" المرابطين)

هذا هو الملمح السوسيولوجي الأهم لطلبة الماستر. لقد طبق المرابطون دون قصد "النظرية الخلدونية" في أطوار الدولة.

- **ذوبان العصبية :**انتقل الجيل الثاني والثالث من أمراء لمتونة وقادة جيشهم من شظف العيش والخيام في الصحراء، إلى الترف وسكن القصور المزخرفة في قرطبة وإشبيلية. بدؤوا في تقليد الأندلسيين في ملبسهم ومأكلهم ونمط حياتهم، فتراخت خشونتهم البدوية.

- **الصدام الاجتماعي :**رغم هذا الاندماج الطبقي الفوقي، ظل "العوام" في الأندلس ينظرون إلى الجند المرابطي (الذين كانوا يمشون ملثمين في الأسواق ولا يتقنون العربية الفصحى) كغرباء ومحتلين، مما ولد احتكاكات اجتماعية يومية أسست لاحقاً للثورة عليهم.
- **التحليل الأكاديمي :**يطبق العلامة **ابن خلدون** نظريته في "الهرم وذهاب العصبية" ببراعة على حالة المرابطين في الأندلس، في نص شديد الأهمية:

"ثم لما استقر ملكهم بالأندلس... انغمسوا في نعيمها، واستحالت صبغتهم البدوية إلى الحضارة والترف... فذهبت خشونتهم، ورقت حواشيهم، وضعفت عصبيتهم التي كانت سر غلبتهم... فمهد ذلك طريق الهرم لدولتهم" (3).

.4الخلاصة :

يُثبت هذا المحور أن الهيكلة الإدارية المرابطية كانت عبارة عن "تسوية براغماتية " .(Pragmatic Compromise)لقد نجح المركز (مراكش) في السيطرة العسكرية على الأطراف (الأندلس) عبر قادة لمتونة، ولكنه في الوقت ذاته، خضع للاحتلال الإداري والثقافي الأندلسي. هذا المزيج الهجين أطال عمر الأندلس لقرن من الزمان، لكنه في النهاية أدى إلى ذوبان السلاح الأمضى للمرابطين: "العصبية الصحراوية"، مما سيسهل على الممالك المسيحية استئناف هجماتها، وعلى الموحدين الانقضاض عليهم من جبال المصامدة.

الهوامش :

(1)أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي، *البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، تحقيق ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ج 4 (بيروت: دار الثقافة، 1983)، 62.

(2)أحمد بن محمد المقري التلمساني، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس، ج 1 (بيروت: دار صادر، 1968)، 185.

(3)عبد الرحمن بن خلدون، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر*، تحقيق خليل شحادة، ج 6 (بيروت: دار الفكر، 1988), 188.

(4)بوش فيلا(Jacinto Bosch Vilá) ، *المرابطون: تاريخ سياسي واجتماعي*، ترجمة محمود علي مكي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990)، 210-215.

المحور الثالث: التنظيم العسكري والأمني (العقيدة القتالية وإدارة الثغور)

لم تكن القوة المرابطية التي عبرت إلى الأندلس مجرد حشود قبلية تبحث عن الغنائم، بل كانت "آلة عسكرية" منظمة تمتلك عقيدة قتالية صارمة ومختلفة كلياً عما عهده الأندلسيون في عصر الطوائف. إن دراسة التنظيم الأمني والمرابطة العسكرية تُعد المفتاح لفهم كيف استطاعت هذه الإمبراطورية الدفاع عن جبهتين مشتعلتين في آن واحد: جبهة الممالك المسيحية في شمال الأندلس، وجبهة المتمردين والموحدين في بلاد المغرب.

.1الانقلاب في العقيدة القتالية: (من "الكر والفر" إلى "الزحف الصامت")

شهد التدخل المرابطي في معركة الزلاقة (479هـ) وما بعدها تغييراً جذرياً في "التكتيك العسكري" الإسلامي بالأندلس.

- **نهاية جيوش المرتزقة :**ألغى يوسف بن تاشفين الاعتماد على المرتزقة المسيحيين والصقالبة الذين شكلوا عماد جيوش الطوائف، واستبدلهم بجيش عقائدي متماسك قوامه المشاة من قبائل صنهاجة (لمتونة، مسوفة، جُدالة) المسلحين بالرماح الطويلة والدرق اللمتوني (الدروع الجلدية).
- **تكتيك "الصفوف المتراصة :(Phalanx Formation)** "تخلت الجيوش المرابطية عن التكتيك العربي القديم المعتمد على الفرسان الخفاف و"الكر

والفر(Hit-and-run) "، واعتمدت تكتيك الزحف البطيء والصامت للمشاة في صفوف متراصة كالجدار لاختراق خطوط العدو، مع استخدام مفزع لـ "الطبول الضخمة" لبث الرعب في خيول الفرسان المسيحيين المهاجمين.

- **النص المصدر :**يصف الإمام **أبو بكر الطرطوشي** (الذي عاصر هذه الأحداث) هذا الانضباط التكتيكي المذهل لجيش المرابطين، مشيراً إلى صمتهم المهيب أثناء المعركة:

"وكانوا يزحفون في صفوف متراصة لا تنخرم، رماحهم مشرعة، ودرقهم مصطفة، لا يُسمع لهم لغط ولا كلام إلا دوي طبولهم... فإذا حمل عليهم فرسان الروم [المسيحيين] استقبلوهم بالرماح كأنها غابة كثيفة، فلا تستطيع الخيل اختراقهم" (1).

.2الاستراتيجية الدفاعية: (نظام الحاميات وإدارة الثغور)

بعد توحيد الأندلس، أدرك المرابطون أن الحرب مع ألفونسو السادس ومن بعده ألفونسو الأول المحارب (ملك أراغون) هي حرب استنزاف طويلة الأمد تتطلب بنية دفاعية مستدامة.

- **توزيع الحاميات الصنهاجية (الرِّباط) :**لم يُترك الجند في العاصمة قرطبة أو إشبيلية للترف، بل تم نشر "حاميات لمتونية (Garrisons) "دائمة في أخطر الثغور الشمالية المتاخمة للعدو، مثل: سرقسطة (الثغر الأعلى)، وإفراغة (Fraga)، وبلنسية.
- **إعادة إحياء "المطوّعة :"**إلى جانب الجيش النظامي (الديوان)، أعاد المرابطون إحياء ثقافة "الجهاد الشعبي" عبر دعوة الأندلسيين للتطوع (المطوعة والحشود) في المواسم الصيفية للدفاع عن قراهم ومدنهم، مما خلق حالة من التعبئة العامة الدائمة.

- **النص المصدر :**يذكر **ابن أبي زرع** هذه الهيكلة الدفاعية التي أنشأها أمير المسلمين، مبيناً كيفية دمج العنصر الأندلسي مع القيادة المرابطية:

"وأمر أمير المسلمين ببناء الحصون وترميم أسوار الثغور، وجعل في كل ثغر قائداً من كبار لمتونة، وأردفهم بأجناد الأندلس وأهل النجدة منهم، فامتنعت الثغور، ورُد كيد الروم في نحورهم" (2).

.3الجسر البحري الاستراتيجي: (تأسيس الأسطول المرابطي)

في مستوى الماستر، يجب ألا نُغفل "الجيوبوليتيك البحري". أدرك المرابطون مبكراً أن بقاء الإمبراطورية مرهون بإبقاء "مضيق جبل طارق" مفتوحاً لضمان تدفق الإمدادات البشرية واللوجستية من المغرب إلى الأندلس.

- **بناء الأسطول :**أمر يوسف بن تاشفين بإنشاء ترسانة بحرية ضخمة، معتمداً على خبرة الأندلسيين البحرية. فتم تعيين الأمير الأندلسي **محمد بن ميمون** قائداً للأساطيل المرابطية.
- **السيطرة على المضيق :**اتخذ الأسطول من موانئ "ألمرية" و"قادس" في الأندلس، و"سبتة" في المغرب قواعد انطلاق له. لم يقتصر دور هذا الأسطول على حماية المضيق، بل شن هجمات استباقية (Amphibious attacks) على سواحل الممالك المسيحية وجزر البليار لإضعاف قدرتها على قطع خطوط الإمداد.
- **التحليل الأكاديمي :**يرى المؤرخ الإسباني **بوش فيلا** أن القوة البحرية كانت الرئة التي تتنفس منها الأندلس المرابطية:

"لم تكن إمبراطورية المرابطين إمبراطورية برية صحراوية فحسب، بل أُجبرت بحكم الجغرافيا على التحول إلى قوة بحرية كبرى... فبدون السيادة المطلقة على مياه

المضيق، كان الجيش المرابطي في الأندلس سيُعزل تماماً ويُباد في ظرف شهور قليلة" (3).

4.الخلاصة :

يُبرز هذا المحور مدى البراغماتية والقدرة على "التكيف العسكري" لدى القيادة المرابطية. لقد استطاع أبناء الصحراء دمج تكتيكاتهم البدوية (قوة التحمل وصبر المشاة) مع التكنولوجيا الحربية الأندلسية (الأسطول البحري وحرب الحصون)، ليخلقوا آلة عسكرية هجينة وفعالة. غير أن هذه الآلة الجبارة ستتعرض لاحقاً لـ "الإنهاك الاستراتيجي (Strategic Overstretch) "في عهد علي بن يوسف؛ بسبب اضطرارها للقتال المزدوج ضد المسيحيين في الشمال والموحدين المتمردين في عمق المغرب، مما أدى في النهاية إلى تصدع المنظومة الأمنية بأكملها.

الهوامش :

(1)محمد بن الوليد الطرطوشي، *سراج الملوك*، تحقيق محمد نظام الدين الفتيح (الإسكندرية: دار الدعوة، 1990)، 215-217.

(2)أبو الحسن علي بن أبي زرع الفاسي، *الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس*، راجعه عبد الوهاب بنمنصور (الرباط: المطبعة الملكية، 1972)، 155.

(3)بوش فيلا(Jacinto Bosch Vilá) ، *المرابطون: تاريخ سياسي واجتماعي*، ترجمة محمود علي مكي (بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1990)، 242.

(4)محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية*، ج 3 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، 85-89.

المحور الرابع: أزمة النظام المرابطي وسقوطه في الأندلس (القطيعة السوسيولوجية)

رغم البداية القوية والشرعية الصلبة التي أسسها يوسف بن تاشفين، لم يعمر الوجود المرابطي في الأندلس طويلاً (حوالي نصف قرن فقط). ففي أواخر عهد ابنه علي بن يوسف، بدأت آلة الدولة في التآكل الداخلي السريع قبل الانهيار العسكري الخارجي. بالنسبة لطالب الماستر، يجب تفسير هذا السقوط ليس بهزائم المعارك فحسب، بل بـ "أزمات هيكلية" نخرت جسد الإمبراطورية.

1.القطيعة السوسيولوجية (أزمة الاندماج):

لم ينجح المرابطون يوماً في تحقيق "الاندماج الاجتماعي" مع الأندلسيين.

- **النظرة الاستعلائية المتبادلة :**نظر الأندلسيون (حتى العوام منهم) إلى الجند الصنهاجيين كـ "بدو غلاظ" يجهلون أصول الحضارة واللغة العربية الصافية، بينما نظر المرابطون إلى الأندلسيين كشعب مترف مفرط في الملذات وضعيف عسكرياً.
- **فساد الجيل الثاني :**بعد وفاة الرعيل الأول من المؤسسين، نشأ جيل جديد من أمراء لمتونة في قصور الأندلس، ففقدوا "العصبية الصحراوية" والخشونة التي كانت سر قوتهم، وتورطوا في نهب الأموال والتسلط على رقاب الأندلسيين.
- **النص المصدر :**يصف المؤرخ **عبد الواحد المراكشي** هذه القطيعة التي أدت إلى ثورة الأندلسيين، قائلاً:

"فلما طال مُكث لمتونة بالأندلس... انهمكوا في اللذات، وأخلدوا إلى الراحة، وتكبروا على أهل الأندلس، وصاروا يأخذون أموالهم غصباً... فمقتهم أهل الأندلس، وشنؤوهم، وتمنوا زوال أيامهم" (1).

2.الجمود الأيديولوجي (ديكتاتورية الفقهاء ومحنة الغزالي):

تحول التحالف الاستراتيجي مع فقهاء المالكية (الذي شكل نقطة قوة في البداية) إلى عبء ثقيل خنق حيوية المجتمع الأندلسي والمغاربي.

- **احتكار الحقيقة :**سيطر "فقهاء الفروع" على كل مفاصل الدولة، وحرموا الاجتهاد، وحاربوا كل التيارات الفكرية الأخرى (الفلسفة، علم الكلام، والتصوف).
- **إحراق كتب الغزالي (503هـ) :**شكلت إدانة كتاب *إحياء علوم الدين* لأبي حامد الغزالي، وصدور أمر سلطاني بإحراقه في ساحات قرطبة، القشة التي قصمت ظهر البعير. أدى هذا القرار إلى سخط النخب الفكرية والصوفية في المغرب والأندلس، مما سحب البساط الأخلاقي من تحت أقدام الدولة المرابطية.
- **التحليل الأكاديمي :**يرى المفكر **محمود إسماعيل** في تحليله السوسيولوجي لهذه الحادثة أن المرابطين:

"أوقعوا أنفسهم في عزلة فكرية قاتلة؛ فقد حولوا المذهب المالكي من فقه مرن إلى أيديولوجيا قمعية... وكان إحراق كتب الغزالي بمثابة انتحار أيديولوجي وفر للموحدين مبرراً شرعياً للثورة عليهم بدعوى تجديد الدين" (2).

.3الإنهاك الاستراتيجي وتفكك الإمبراطورية:

في أواخر عهد علي بن يوسف، وجدت الدولة المرابطية نفسها تخوض "حرباً على جبهتين:(A Two-Front War) "

- **في الشمال (الأندلس) :(**تصاعد هجمات "ألفونسو الأول المحارب" (ملك أراغون) وتوغله العميق حتى أطراف غرناطة بمساعدة المستعربين.
- **في الجنوب (المغرب) :**ظهور دعوة "ابن تومرت" المهدي وحركة الموحدين في جبال المصامدة، والتي بدأت تلتهم ولايات المغرب الواحدة تلو الأخرى.
- **سقوط النظام :**استنزفت حرب الموحدين في المغرب خيرة القوات المرابطية، مما اضطر الدولة لسحب حامياتها تدريجياً من الأندلس. هذا "الفراغ الأمني"

أدى إلى ثورة الأندلسيين وطرد الولاة اللمتونيين، لتدخل الأندلس في **"عصر طوائف ثانٍ "**مؤقت قبل أن يتدخل الموحدون لضمها مجدداً.

خامساً: الخاتمة العامة للمحاضرة

ختاماً، إن التجربة المرابطية في الأندلس هي تجسيد حي لنظرية "المنقذ الخارجي" الذي يتحول بمرور الزمن إلى "عبء داخلي."

لقد أدت الإمبراطورية المرابطية دورها الجيوسياسي بنجاح باهر في العقود الأولى؛ فأنقذت الأندلس من السقوط الحتمي بعد صدمة طليطلة، ووحدت الغرب الإسلامي لأول مرة في تاريخه تحت راية واحدة، وأسست عقيدة عسكرية نظامية أخرت حروب الاسترداد (Reconquista) لقرن كامل تقريباً.

إلا أن الإخفاق الأكبر للمرابطين كان في عجزهم عن إحداث "اندماج سوسيولوجي وثقافي" حقيقي بين المركز الصحراوي/المغاربي وبين الأطراف الأندلسية الحضرية. إن اعتمادهم المفرط على الانغلاق الفقهي (ديكتاتورية فقهاء الفروع)، وتراخي عصبيتهم القبلية بفعل ترف الحواضر، جعل دولتهم كالشجرة الضخمة الجوفاء؛ ما إن هبت عليها رياح الثورة الموحدية من جبال الأطلس، حتى تهاوت بسرعة تاركة الأندلس أمام فراغ سياسي جديد سيتطلب تدخلاً مغاربياً آخر.

بهذا التحليل المؤسساتي، نكون قد مهدنا الأرضية لفهم المحاضرة القادمة، والتي ستتناول "عصر الموحدين": كيف حاولوا تلافي أخطاء المرابطين السوسيولوجية، وكيف بنوا أيديولوجيا شمولية (المهدية) لإدارة هذا المجال الجغرافي شديد التعقيد.

الهوامش :

(1)عبد الواحد المراكشي، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق محمد سعيد العريان (القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1963)، 185-186.

(2)محمود إسماعيل، *سوسيولوجيا الفكر الإسلامي: طور الانهيار*)القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع، 2005)، 112-115.

(3)إبراهيم القادري بوتشيش، *المغرب والأندلس في عصر المرابطين: المجتمع،*

خامساً: الخاتمة العامة للمحاضرة

لقد أدت الإمبراطورية المرابطية دورها الجيوسياسي بنجاح باهر في عقودها الأولى؛ فأنقذت الأندلس من السقوط بعد صدمة طليطلة، ووحدت الغرب الإسلامي لأول مرة، وأخرت حروب الاسترداد لقرن كامل. إلا أن عجزها عن إحداث "اندماج سوسيولوجي وثقافي" بين المركز والأطراف، واعتمادها المفرط على الانغلاق الفقهي، وتراخي عصبيتها القبلية، جعل دولتهم كالشجرة الضخمة الجوفاء؛ تهاوت سريعاً أمام رياح الثورة الموحدية تاركة الأندلس أمام فراغ سياسي تطلب تدخلاً مغاربياً جديداً .